أجل ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ لا الصبغة اليهودية والنصرانية[١] أمّا هيه من المختلَقات الزور والغُرور التي هي من صَبغ الغَرور ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٢]!.

وكما أن ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾[٣] آية يتيمة، كذلك ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ وهي أعمّ منها وأتم وأطمّ حيث تعمّ كلّ صبغة ربانية تكوينية أو تشريعية، ما بالإمكان الالتزام له أو تحصيله حتى يصبح صاحبها من أهل الله وخاصته وخيرته وحزبه، اللهم اجعلنا منهم بحقهم.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾:

فلماذا المحاجة في الله: في ذاته وصفاته وأفعاله، في وحيه وآياته، لماذا المحاجة فيه بين من يربِّبه دون نكير حسب الأصل الكتابي وصبغة الله، ثم ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ دونكم ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ دوننا كما ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ دونكم؟.

---

(١) الدر المنثور ١: ١٤١ عن قتادة قال: إن اليهود تصبغ أبناءها يهود وإن النصارى تصبغ أبناءها نصارى وإن صبغة الله الإسلام ولا صبغة أحسن من صبغة الله الإسلام ولا أطهر وهو دين الله الذي بعث به نوحاً ومن كان بعده من الأنبياء.
وفيه أخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله فناداه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك فقل نعم إن أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها في صبغتي وأنزل الله على نبيه ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أقول: ولكنها لا تعني صبغة الألوان اللهم إلّا هامشاً كخلق الله ومنه الأصباغ كلها، حيث الصبغة هيئة خاصة من الصبغ فلا تعني - مبدئياً - كلّ صبغ.
والنصارى يشتغلون بصبغ أولادهم في سابع الولادة مكان ختان المسلمين، بغمسهم في الماء الأصفر المسمى عندهم بالمعمودية، وهو اسم ماء غسل به المسيح عليه السلام، فمزجوه بماء آخر وكلما استعملوا منه جعلوا مكانه ماءً آخر.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

إن المحاجة في الدين هي حصيلة أحد أمرين: الاختلاف فيمن يُعبد ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أو الاختلاف في: أيّ الأعمال أصلح وأقرب إلى الرب ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا فحسب حتى نستوي فيها بل ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ معرفياً وعبودياً دون إشراك، فلماذا - إذاً - تحاجوننا؟! ولقد كانت اليهود والنصارى - كلٌّ - يختص الرب بنفسه بآصرة النبوة الإلهية المزعومة أو النبوة الممتازة المدّعاة، فرد عليهم هذه التهوسةَ العمياءَ بأن ربوبيته - كأصل - هي بيننا وبينكم على سواء، ثم ونحن نختلف في مدارج الزلفى إليه حسب الأعمال والإخلاص فيها، فمن هو أخلص منا لله معرفياً وعملياً؟.

ثم إذا اختصت الهدى والزلفى بمن كان هوداً أو نصارى، فما بال إبراهيم الخليل أهو كما نحن - في زعمكم - بعيد عن الهدى وأنتم به تنتسبون وتفتخرون؟:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾:

لقد كان هؤلاء قبل اختلاق اليهودية والنصرانية، فهل كانوا - بعد - هوداً أو نصارى؟.

وعجباً من حمقهم في عمقهم أنهم كانوا يتفوهون بهذه الفرية الوقحة على هؤلاء الرسل الكرام! وتراهم ماذا يظنون بهؤلاء؟ أهم ضُلّال لأنهم ليسوا هوداً أو نصارى، أم هم هود أو نصارى؟ ثم الله مشتبه في أمرهم، وإنما يعرف الهدى هود أو نصارى! ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؟

ولقد كتموا شهادة إلهية تحمل بشارة محمدية: كتماناً عن أسرها، أم

تحريفاً في لفظها ومعناها لحسرها عن معناها وأسرها عن محتواها فهم أظلم وأطغى.

﴿تِلْكَ﴾ الكتلة الرسالية والرسولية الصالحة، إسرائيلية وسواها ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت بإسلامها وأعمالها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ دونكم ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ دونهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾ أنتم - أيّاً كنتم - ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] - ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2].

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ

فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾:

جزءٌ ثان من القرآنِ يبدأ فيه بهامة تحويل القِبْلةِ، مما أَحْدَث عِراكاً حاداً بين أهل القِبْلةِ وناس سفهاء من اليهود والمشركين ومنافقين من المسلمين، فريصة كفريسة حريصةً عليها هؤلاء السفهاء من الناس بمُلابسات أحاطت به، سفسطة عارمة تُواجهها حجة صارمة من رب العالمين:

﴿سَيَقُولُ﴾ المستقبل تستقبل تحويل قبلة إلى أخرى وقوله سفيهة بعد التحويل، و﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ تساؤل استنكار على ذلك التحويل بصورة التهويل والتسويل و«هم» يحتمل أنفسهم إلى جانب سفهاء غيرهم فـ «هم» تعم سفهاء من المشركين وأهل الكتابين وجهالاً من المسلمين، ولكنما الخطر الحادق الذي سفّه جهالاً من المسلمين هو سفاهة أهل الكتاب ولا سيّما اليهود الذين كانت قِبْلَتُهم قِبْلَةَ الإسلام لردح ابتلائي من الزمن.

لو كانت القِبْلَةُ المتولى عنها في ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ هي القدس إلى الكعبة، زعم أن القدس هي القِبْلَةُ المكية، لكان صحيح التعبير هو «وقال السفهاء» فإن سفاسف القول وسفاهته من المشركين وضعفاء المسلمين كانت أشدّ خطراً على الدعوة الجديدة الإسلامية في مكة.

فلتكُن الآية نازلة قبل أي تحّول عن القِبْلَةِ المرضية - وهي الكعبة المباركة - و﴿سَيَقُولُ﴾ توطئَة لتحولها إلى القدس حيث يتبع قالة سفيهة من مشركين ويهود وضعفاء من المسلمين، ثم تحول القدس إلى الكعبة المباركة حيث يتبع قالة الآخرين وتقطع ألسنة المشركين.

فالتحويلُ الأوّل هو المحور لهذه السفاهة الثالوثية، وعلى ضوئه الثاني قضاء على سفاهة وبقاء الأخرى.

ثم ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ نازلة بعد التحويل الثاني فإن ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ التي يعتذر منها هي القدس، إذ لم يكن اتباع الرسول - كابتلاء للمسلمين - إلّا في التحوِل عن الكعبة إلى القدس، فإن التحوّل عن القدس إلى الكعبة كان مرجواً لهم ينتظرونه ليل نهار كما والرسول ﷺ كان يقلب وجهه إلى السماء.

ولم تكن الكبيرة الثقيلة عليهم إلّا قِبْلَةَ القدس المتحوَّل إليها من الكعبة المباركة، ثم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ طَمأنة لهم بالنسبة لفترة القِبْلَةِ الثانية، زعماً من بعضهم أن صلاتهم إليها كانت ضائعة.

فـ ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ من المسلمين، تعني - بطبيعة الحال - القِبْلَةَ المكية، وكذلك من غيرهم حيث القِبْلَة المتولى عنها هي قِبْلَة المسلمين، فهي - على أي الحالين - ليست القدس، بل الكعبة المباركة، مهما شملت ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ التحويل الثاني ضمنياً، وهو من القدس إلى الكعبة. ثم ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ إجابة صارمة عن كافة المشاكل المزعومة حول النسخ والتحويل، سواء من أهل الكتاب أم سفهاء المسلمين... أترى بعد ﴿قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَآ﴾ هي القدس؟ وصيغتها الصحيحة - ولا سيّما من اليهود المتبجحين بقِبْلَتهم وبكلِّ ما لديهم -: «قِبْلَتنا» توهيناً للمسلمين أنهم ما كانت لهم قبلة في بزوغ إسلامهم إلّا قِبْلَتنَا، و﴿قِبْلَتِهِمُ﴾ هي الكعبة المباركة

التي كانت قِبْلَةً لهم في العهد المكي، ثم حوّلت عنها بعد الهجرة لمصلحة وقتية مذكورة في آيات تالية، ثم رجعت إلى ما كانت للمصلحة الدائبة الخالدة في استقبال البيت العتيق، وقد دلت على ذلك أحاديث[١].

أم أنها القدس إذ كانت قبلتهم منذ بزوغ الإسلام وحتى أشهر بعد الهجرة ثم حولت إلى شطر المسجد الحرام كما تدل عليه طائفة أخرى من أحاديث[٢]، وعلّ التعبير عن القدس هنا بـ﴿قِبْلَتِهِمُ﴾ يعني تعميق الشبهة في ذلك التحويل، أنها كانت قبلتهم منذ البداية، فهي - إذاً - قِبْلَتَهُم، مهما كانت كذلك قِبْلَتنَا، فهم لا يُعارضوننا - فقط - في شُرْعتنا، بل وفي شُرْعَتهم، معارضة ذات بُعْدَيْنِ بعيدين عن شرعة الحق التي لا تتحول - في قياسهم - نكراناً للنسخ - أيّاً كان - وهم في الوقت نفسه معترفون بالشرعة

(١) كما في الدر المنثور ١: ١٤٢ عن ابن عباس قال: أوّل ما نسخ في القرآن القبلة وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم . . . وفيه عن البراء بن عازب كان رسول الله ﷺ قد صلّى نحو بيت المقدس سنة عشر أو سبعة عشر شهراً . . . وعن ابن عباس أن محمداً كان يستقبل صخرة بيت المقدس وهي قبلة اليهود فاستقبلها سبعة عشر شهراً ليؤمنوا به وليتبعوه وليدعوا بذلك الأميين من العرب فقال الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٥] وقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤]، وعن سعيد بن عبد العزيز أن النبي ﷺ صلّى نحو بيت المقدس من شهر ربيع الأول إلى جمادى الآخرة، وفيه عن أنس أن القبلة قد حولت إلى الكعبة مرتين. فمالوا كما هم ركوع إلى الكعبة.

(٢) كما في الدر المنثور ١: ١٤٣ - أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب أن الأنصار صلت للقبلة الأولى قبل قدوم النبي ﷺ المدينة بثلاث حجج وأن النبي ﷺ صلّى للقبلة الأولى بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً.

وفي تفسير البرهان ١: ١٥٨ - أبو علي الطبرسي عن علي بن إبراهيم بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: تحولت القبلة إلى الكعبة بعد ما صلى النبي ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس وبعد مهاجرته إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس سبعة أشهر، قال: ثم وجهه الله إلى الكعبة . . .

الإبراهيمية المنسوخة في البعض من أحكامها بالشرعة التوراتية، وعارفون التناسخ في التوراة نفسها، وهم الآن يندِّدون بكلِّ نسخٍ وناسخٍ بعد التوراة!

وعلّ ﴿قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَآ﴾ تشمل القبلتين، حيث كانت هي الكعبة ثم تحولت إلى القدس، ثم من القدس إلى الكعبة، وكلاهما ﴿قِبْلَتِهِمُ﴾ إذ كانتا أمراً من شرعتهم، ولا صراحة في الآيات لإحداهما بل «سيقول» تعمّهما مهما اختلفت قولة عن قولة كما اختلفت قبلة عن قبلة، ثم الأحاديث القائلة أنه ﷺ أمر في العهد المكي أن يستقبل القدس من واجهة الكعبة[1] قد تجمع بين القبلتين في العهد المكي، ولكلٍّ من القِبْلَتَيْنِ ملامح في ذلك العهد من الآيات التالية، لا سيّما بالنسبة للكعبة المباركة.

فـ﴿سَيَقُولُ﴾ كقولة معترضة آتية من السفهاء، هي أَحْرَى أن تكون «قال» لو أن القدس هي القِبْلَة المكية، فإنها هي الأصيلة عند الموحدين والمشركين، فكون القدس - إذاً - هي القبلة المكية هو مثارٌ لسفاهة وسفاسفة القول أكثر من تحويل القبلة عن القدس إليها، ومن ثم فكلٌّ من إلّا

(١) المصدر عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يصلّي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعدما تحول إلى المدينة ستة عشر شهراً ثم صرفه الله إلى الكعبة. وفي تفسير البرهان ١: ١٥٨ - الإمام أبو محمد العسكري عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ إذ كان بمكة أمره أن يتوجه نحو بيت المقدس في صلواتهم ويجعل الكعبة بينه وبينها إذا أمكن لم وإذا لم يمكن استقبل بيت المقدس فكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك طول مقامه بها ثلاث عشرة سنة فلما كان بالمدينة وكان متعبداً باستقبال بيت المقدس استقبله وانحرف عن الكعبة سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً . . .
وفي الدر المنثور ١: ١٧٥ - أخرج أحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن معاذ بن جبل قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال وأحيل الصيام ثلاثة أحوال فأمّا أحوال الصلاة فإن النبي ﷺ قدم المدينة فصلى سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس ثم إن الله أنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البَقَرَة: ١٤٤] الآية فوجهه الله إلى مكة هذا حول . . .

لنعلم... قد نرى تقلب وجهك... لئلا يكون للناس عليكم حجة... كلُّ ذلك إضافة إلى أن مكية القدس في القبلة هي من الموانع العظيمة لقبول الإسلام لذلك القول اللدّ - لدّاً إلى لدِّهم! - هذه الخمس هي من عساكر البراهين لكون القبلة المكية هي الكعبة المباركة، مهما اتَّجه الرسول ﷺ إلى القدس من قِبَلها ضمنها أم لم يتجه، وتفصيل الأربعة الأخيرة تجدهُ عند آياتها.

وعلى أية حال فلقد جاء قومٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! هذه القِبْلَة بيت المقدس قد صلّيت إليها ثم تركتها الآن، أفحقًّا كان ما كنت عليه؟ فقد تركتهُ إلى باطل! فإن ما يخالف الحق فهو باطل، أو باطلاً؟ فقد كنت عليه طول هذه المدة! فما يؤمننا أن تكون الآن على باطل؟ فقال رسول الله ﷺ: بل ذلك كان حقاً وهذا حق يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إذا عرف صلاحكم يا أيها العباد في استقبال المشرق أمركم به وإذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب أمركم به، وإن عرف صلاحكم في غيرها أمركم به، فلا تنكروا تدبير الله في عباده وقصده إلى مصالحكم...[1].

والمشرق والمغرب هنا هما تعبيران عن كافة الجهات الأرضية، لأنهما النقطتان الأصيلتان، فليس المشرق: القدس - فقط - لله، أو المغرب: قِبْلَة النصارى - فقط - لله، بل والجنوب الكعبة فلهُ الجهات كلَّها، يحوِّل عبادهُ في صلاتهم وكلّ صلاتهم أينما يُريد لمصالح وابتلاءات، كما وأن أصل تحوّل شُرْعة إلى شرعة ابتلاء: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

(١) هذا من تتمة الحديث السابق عن الإمام العسكري، ومكان النقط... أربع عشرة سنة، فهو من القسم الثاني الدال على أن القبلة في مكة كانت هي القدس، ولكن باتجاه الكعبة.

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1]. فكما أن قِبْلَة القدس - في وقتها - صراط مستقيم لاتجاه الصلاة، كذلك الكعبة المباركة صراط مستقيم، بل هي الأصل المقصود على مدار الزمن الرسالي، ولا سيّما الإسلامي، وقِبْلَة القدس ابتلاء وقتي لمصلحة وقتية وقد مضت.

وقد اختلفت الروايات في عديد الأشهر المدنية لقِبْلَة القدس من خمسة إلى سبعة إلى سبعة عشر، ولأن عديد الأشهر ليس من صميم قصته التحويل، لم تشر إليها الآيات وكما لم تصرح للقبلة المكية، فإنما الأصل في مسرح البحث هو تحويل القبلة، وأن أصلها هو الكعبة المباركة.

ولقد انطلقت أبواق اليهود السفهاء - ومعهم سائر السفهاء من الناس مشركين ومنافقين ومسيحيين - تصرخ على المسامع ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ مرة أولى حين تحولت عن الكعبة إلى القدس، ومرة أخرى إذ تحولت عن القدس إلى الكعبة، انطلقت تلقي في صفوف المسلمين وفي قلوب السذج منهم بذور الريبة والقلقة، حيث النسخ - في زعمهم - دليل الجهل وهو لا يصدر عن مصدر الربوبية، دليلاً على أن محمداً لا يصدر عن ربه!.

ذلك! رغم ما سبق في ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾... إذ بيّنت أن النسخ - على أية حال - تحمل مصلحة مماثلة أو خيراً مما نُسخ، وقبلة الكعبة خيرٌ من قبلة القدس كأصل على مدار الزمن، كما وأن قبلة القدس كانت خيراً منها - مصلحياً وقتياً كاختبار - أو مثلها في أصل الاتجاه.

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.